مشروع ترميم الباب الشرقي بدمشق

المهندس المعمار
عدنان مفتي

لا شك بأن الباب الشرقي بدمشق يعتبر من أهم الأبواب بدمشق ومن أجمل عناصر فن العمارة وعمران المدن ، لا في دمشق فحسب بل وفي جميع مدن الشرق في العصر الروماني ولقد كانت الأبواب والاسوار بالنسبة للمدن في ذلك العصر الروماني عنصراً هاما وأساسيا . اذ أن لكل مدينة — مهما كان شأنها — سوراً دفاعياً يحيط بها ويختلف شكله باختلاف المدينة ودرجة أهميتها . وكذلك الأبواب ، التي هي عبارة عن منافذ ضمن السور ، تقع في أطراف الشوارع الرئيسية . واذا كانت أبواب المدن في العصور القديمة قــد غلب عليها الطابع الدفاعي لفقدان الطمأنينة وكثرة الغزوات والحروب ، فإنه في القرن الثاني والثالث الميلادي قد استتب الأمن ، وساد ربوع البلاد ، وأصبحت التحصينات ملقاة على عاتق الحدود الخارجية للبلاد ، وبذلك أصبحت أبواب المدن تغلب عليها العناصر الجمالية والتي هي امتداد للأروقة والشوارع وأجزائها المعمارية المختلفة . ولذا فان معظم الأبواب التي بنيت في تلك الفترة (١) قد اتخذت أشكال قوس نصر ذي فتحة كبرى في الوسط وفتحتين جانبيتين الى طرفي البناء كما هو الأمر بالنسبة لبصرى وشهبا وأفاميا وغيرها اما بالنسبة لدمشق فإن الباب الوحيد الذي وصل الينا من العصر الروماني هو البــاب الشرقي وهو موضوع دراستنا هذه .

---

(١) E. SAGLIO : Dictionnaire ds antiquités grecques et romaines. p. 581

يقع هذا الباب كما يدل عليه اسمه في شرق المدينة (وقد كان يتألف من ثلاث فتحات فتحة كبيرة في الوسط وفتحتين جـانبيتين) وهو ثغر دمشق ، تستقبل به كل مـا هو آت من الشرق ، من تجار وزائرين ، وتدافع منه عن نفسها ضد غوائل الغزاة والفاتحين . وقد أصبح جزءاً من المدينة وحارسها الأمين ، غير أن عبء ثمانية عشر قرنا قد شوهت معالمه ، وأثقلت كاهله ، وامتدت اليه يد التخريب والتهديم ، وراحت أجزاؤه تتفكك وتندثر تحت البيوت التي لاصقته وطغت عليه (الصورة رقم ١) ، وبدأت معالمه تضيع شيئاً فشيئاً بحيث لم يبق منه لدى المباشرة بكشفه وترميمه سوى فتحة واحدة (الصورة رقم ٢) ، وقد أصبح معظم الناس يتساءل عن سبب وجود هذه الفتحة التي تعرقل مرور السيارات ، وتعيق مختلف وسائط النقل . الأمر الذي دعا جديا للتفكير بانقاذ الباب وترميمه واعادة بنائه كما كان في العصر القديم ، وقد باشرت فعلا مديرية الأبنية الأثرية في المديرية العامة للاثار والمتاحف بمشروع الترميم ، كما أن أمانة العاصمة قد أجرت دراسات واسعة لتنظيم تلك المنطقة .

كشف الباب :

لقد بوشر فعلياً بكشف جميع عناصر هذا البناء وذلك في أوائل عام ١٩٦١ . حيث أزيلت البيوت والمنشآت التي تغطي وتعلو الأقسام الجنوبية والوسطى منه ، وبدأت الحفريات للتحري عن هذه الأقسام وجمع أنقاضها ، ولسوء الحظ تبين أن هناك أقساماً كبيرة مفقودة قد استعملت أحجارها — كما هو الحال في معظم الأبنية الأثرية — في بناء بعض البيوت ، وكان لا بد من المضي في الترميم واعادة بناء الأقسام الناقصة من أحجار جديدة بنفس مقاييس وأبعاد الأحجار القديمة وزخرفتها وطرازها ، وقد تجاوز بعضها عشرة أطنان . كما أن موضوع الترميم واعادة الأقسام الناقصة من الباب قد أثار جدلاً ونقاشا حاداً عند المباشرة بالدراسة بين الأثريين والمهندسين حول كيفية الترميم الواجب اتباعها ، وهل يجب اعادة هذه الاقسام الناقصة وتجديدها ، أم ترك الباب على ما هو عليه بعد كشفه . وعلى كل فقد تركنا النقاش يستمر ، وباشرنا بتدعيم الأقسام المتداعيه وتجديد الأقسام الضرورية ولا يزال المجال مفتوحاً للحكم على نتائج الأعمال .

لمحة تاريخية :

لابد لنا قبل البدء بوصف الباب وبيان أهميته من اعطاء لمحة عن تاريخه والحوادث التي مرت عليه . وفي الواقع بني هذا الباب في عهد سبتيم سيفر وكاراكالا (١) أي في السنوات الأخيرة من القرن الثاني للميلاد والسنوات الاولى من القرن الثالث في الوقت الذي امتزجت فيه الحضارة الرومانية مع الحضارة الشرقية ، وأعطت روائع ثمارها وخاصة في فن العمارة . ولا بد لنا من الاشارة الى أن هذا البناء لم يبنه المهندسون الرومان كما هو شائع خطأ بالنسبة لمعظم الأبنية السورية التي أنشئت في ذلك العصر ، بل على العكس فان المهندسين والمعماريين العرب هم الذين أسهموا في تشييد بعض أبنية روما (٢) . وربما تدهش القارىء هذه الفكرة ، وعلى كلٍ سنفرد بحثاً عن المعماريين العرب السوريين الذين أشادوا القلاع والجسور والمباني العظيمة في مختلف أنحاء العالم في ذلك العصر ونذكر على سبيل المثال المعمار ابو لودور الدمشقي الشهير الذي ساهم في بناء تنظيم فوروم تراجان في روما وغيرها من المنشآت .

وعلى كل فان آبدتنا هذه هي حتما من تصميم أحد المعماريين من أهل البلاد نفسها وقد بنيت في وقت انتشر فيه الامن وساد السلام والنظام مختلف أنحاء البلاد ، ولذا فإننا نلاحظ أن العناصر الجمالية تتغلب فيهـــا على العناصر الدفاعية ، بينما نجد أن معظم أبواب المدن قد طغت عليها الابراج (باب Porte de Megalopolis à Messène) بل إن بعضها قد أمعن في تعقيد ممراته ومداخله (باب Porte de Melangia-Aragos à Mantinée) ، كما نجد أن البساطة وجمال النسب تتجلى بأبهى صورها في هذا المبنى ، وهو بفتحاته الثلاث أشبه ما يكون بقوس نصر .

---

(١) J. Sauvajet : Mon. Hist. de Damas

(٢) انور حاتم : الذكريات السورية في روما . الحوليات الأثرية السورية (المجلد ١١ ، ص ١٦٥).

ولعل من أهم الأحداث التي مرت عليه نزول خالد بن الوليد عليه يوم فتح دمشق (١) وذلك في ١٥ رجب سنة ١٤ للهجرة بعد حصار دام حوالي سبعين يوما ، ودخل منه عبد الله بن علي العباسي عند سقوط الدولة الأموية ، ونور الدين الزنكي حين سقطت دمشق بيده (٢) . وقد زيد في تحصيناته ورفعت فوقه مداميك من الحجارة (صورة رقم ٣) لا تزال حتى الآن فوق الفتحة الشمالية ، وأضيفت اليه من الداخل قوس بدعامتين (صورة رقم ٤) كانت موجودة الى عهد قريب ، وقد اضطررنا لازالتها حيث أصبحت تشكل خطراً على المارة وعلى البناء نفسه .

وقد كان حولهماينوف عن ثمانية مساجد أهمها مسجد الفتوح ومسجد الوزير ومسجد الباب الشرقي نفسه الذي لا تزال مأذنته البيضاء المربعة قائمة حتى الآن ، وهي تعتلي البرج الشمالي للباب بجانب الفتحة الكبرى (الصورة رقم ٥)

الموقع :

من المعلوم أن فن بناء وتنظيم المدن في ذلك العصر كان في أوجه من التقدم والرقي ، ولعل نظرة سريعة على بعض المدن التي بنيت ونظمت آنذاك تدلنا على أن ذلك لم يكن بدائياً ، فقد كانت المدينة تحتوي على شارعين رئيسيين متعامدين يلتقيان في ساحة عامة تزينها بعض المباني والمنشآت (مثل : مفترق الطرق أو الترابيل) . فأحد هذه الشوارع يتجه الى الجنوب ويسمى (Cardo) والثاني من الشرق الى الغرب ويسمى (Decumanus) ، وبالنسبة لمدينتنا فان الشارع الذي يتجه من الشرق الى الغرب لا يزال قائماً حتى الآن ويسمى (السوق الطويل) وان زالت معالم أروقته وأعمدته

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق تحقيق صلاح الدين المنجد ص ٥١٣ .

(٢) صلاح الدين المنجد : دمشق القديمة ، أسوارها ، ابوابها .

وارتفعت سويته عن السوية الأصلية بحوالي ٣ أمتار . يحد هذا الشارع من الجهة الغربية باب الجابية ومن الجهة الشرقية باب شرقي موضوع هذا البحث (مخطط رقم ١) وهو أحد أبواب دمشق السبعة في العصر الروماني (الباب الشرقي - باب الجابية - باب توما - باب الجنين - باب الفراديس - باب الصغير - باب كيسان - يقع بين باب توما وباب كيسان) . وهو أول ما يستقبل الزائر بمنظر فريد أخاذ بأقواسه الجميلة البديعة ، كما أن أبعاده تتناسب مع الشارع المستقيم وأروقته التي تحده من كل جانب (مخطط رقم ٢)

أوصافه :

إن هذا الباب يتألف من ثلاث فتحات ذات أقواس نصف دائرية وهو بطول ٢٧،٤٨ م وعرض ٤،١٨م فالفتحة الكبرى في الوسط كانت مخصصة لمرور العربات في الشارع المستقيم وهي بارتفاع ١٠،٩١م من سوية البلاط حتى اعلى القوس من الداخل وعرض ٤،١٨ من الجهة الغربية والجهة الشرقية ويحدهـا من الأعلى ساكف مزخرف (Linteau) يعلوها قوس نصف دائري وترتكز على دعمتين (Pilastres) من جانبيا . أما الفتحتين الجانبيتين الشمالية والجنوبية فهما تقابلان الأروقة وكل منها بارتفاع ٥،٩٨ م عرض ٣،٣٦ م ويحدهما من الأعلى أيضاً ساكف يرتكز على دعمتين جانبيتين . وهذا التركيب من خصائص العمارة الشرقية في العصر الروماني ، اذ قلما نجد مثيلاً لهذه السواكف في غيرها من الأبواب والأقواس الرومانية (١) .

تتميز الواجهة الشرقية (المخطط رقم ٣) لهذا الباب بوجود أربع دعمات (Pilastres) ذات قواعد (Bases) بعرض ١،٣٨ م وبروز ٠،١٣ م عن الواجهة وهي شبيهة بمثيلاتها من

(١) الصورتان رقم (٦) و (٧) مأخوذتان عن كتاب Damaskus : W. Watzinger حيث تبين الأولى وجود الساكف للفتحة الجنوبية قبل أن تندثر . كما أن هذه الفتحة قد سدت بجذوع الاعمدة فيما بعد (الصورة رقم ٧) .

الدعامات الموجودة في سور معبد جوبيتر الدمشقي (الصورة رقم ٨) الذي بني في نفس الفترة من ذلك العصر . ومما لا شك فيه أن هناك افريزاً يحد الواجهة بل الباب بأجمعه من الأعلى (المخطط المنظور) وقد وجدت بعض القطع منه لدى التنقيات في جوار الباب ، ولا نزال بانتظار العثور على بقية القطع لنتمكن من اجراء الدراسة الكاملة على الافريز المذكور . (الصور رقم ٩ و ١٠) .

أما فيما يتعلق بالواجهة الغربية (المخطط رقم ٢) فان الارشيتراف الذي يربط بين أعمدة الأروقة الجانبية للشارع المستقيم يرتكز الى الباب بدعمتين من الطراز الدوري (Pilastres doriques) وكل منها بارتفاع ٦٫٢٢ م وعرض ٠٫٨٥م وبروز ٠٫٤٣ م من الواجهة . (المخطط رقم ٥)

كما أن هناك برجين مربعين داخلين الى جانبي الفتحة الوسطى ، يصعد منهما الى أعلى الباب بقصد الحراسة والدفاع ، وقد استعمل البرج الشمالي كقاعدة لمئذنة الجامع فيما بعد . (المخطط رقم ٦)

وقد بنيت جميع أقسام هذا الباب من الحجر الأبيض الصخري القاسي (النوع المسمى بالعواميدي) وتتراوح ارتفاعات المداميك بين ٠٫٦٣م و ٠٫٦٦م كما يتراوح أطوال الأحجار ٠٫٦٠ — ٢٫٠٠م وعمقها ٠٫٤٠ — ١٫١٢م وقد بنيت بحلول ملتصقة (أطراف الأحجار العليا والسفلى والجانبية شديدة الالتصاق ببعضها) وهي جيدة الصقل والنحت .

بدىء باعمال الكشف بازالة البيوت الملاصقة للباب في القسم الجنوبي (الصورة رقم ١١) ولدى ازالة الأنقاض تبين أن هناك عناصر كثيرة مفقودة منه ، كما أن الفتحة الجنوبية متصدعة وأحجارها متفككة . اذ أن جانبيها قد تباعدا عن بعضها بمقدار ١٢ سم مما جعل أحجار القوس العلوي للفتحة المذكورة تتدلى من مكانها للتباعد الحاصل بين رجلي القوس المذكورة

(الصورة رقم ١٢) بالاضافة الى أن الواجهة الشرقية لهذه الفتحة تميل بمقدار ٧ سم، وكان لا بد من تجديد الجهة الغربية الناقصة منها، وتأمين الارتباط والتوازن بين مختلف أقسام السرير (Berceau) بعد تجديد الناقص منه (الصورة رقم ١٣ و المخطط رقم ٧)

كما قمنا بعد ذلك باكمال السرير الكبير للفتحة الوسطى وقد أعدنا بناء عدة مداميك الى جانبي هذه الفتحة لتجنب الضغط الجانبي للعقد وتحقيق التوازن للقسم العلوي لهذا الباب . ومن ثم جمعت قطع الأعمدة التي اكتشفت في المناطق المجاورة والتي تبين أنها تعود للأروقة الجانبية وقد تمت دراستها واعادتها الى أماكنها، وبذلك بدأت الحياة تدب في هذه الآبدة التي نفضت عن كتفيها عبء عشرات القرون والتي كادت تغيب وتندثر من عالم الوجود . (الصورة رقم ١٤)

وكما ذكرنا فقد كانت عناصر هذا المبنى مع الشارع الذي ينتهي اليه وأروقته الجانبية تؤلف كلها وحدة عمرانية ذات منظر منسجم، وتقوم باداء الوظيفة المعمارية على الوجه الاكمل .

واذا ما تصورنا الباب قائماً باقواسه ونسبه الرائعة نجد أن جميع المقاييس الجمالية للعمارة الرومانية الشرقية قد استعملت في نسب واجهاته وأقسامه المختلفة . ولا شك بأن المعمار الذي عهد اليه بالتصميم قد وفق الى أبعد الحدود بالجمع بين عناصر مختلفة ووظائف متناقضة اذ أن للباب وظيفة دفاعية يقتضي معها بناء كتل ضخمة وأبراج محصنة يصعب اقتحامها ومع ذلك ينبغي المحافظة على الناحية الجمالية ، اذ أن الباب هو ثغر المدينة فيجب أن يحمل ابتسامة سكانها أمام الزائرين . ولذا فقد جعلت الأبراج ضمن الركائز على جانبي الفتحة الكبرى بشكل لا تكاد تلحظ . كما أنه من الواجب أن يسهل حركة مرور القوافل والزوار دون أن ينم عما يجيء خلفه تاركا الدهشة ترتسم على الوجوه عند دخول المدينة ومشاهدة شوارعها وأروقتها وأعمدتها الرائعة . كما أننا لا نكاد ننتهي من تأمل المنظر حتى يسترعي انتباهنا نقطة أخرى وهي أقواس

التراتيل حيث يغير الشارع من اتجاهه . وقد كان تغيير الاتجاه مقصوداً في تخطيط وتنظيم الشوارع التي تبدو كأنها لا نهاية لها يصبح مملاً ورتيباً ولذا فمن المستحسن توجيه البصر نحو اليمين أو اليسار الى نقطة يرتاح عندها النظر قرب قوس أو بناء (١) .

هذا ما كان عليه الحال من الرقي والتقدم والذوق السليم في فنون العمارة وما أحوجنا في هذا العصر — الذي بدأت فيه الكتل الاسمنتية تطغى على جميع العناصر الفنية وتراثنا الحضاري في مدينتنا العريقه — الى اعادة النظر في تيار التطور الحالي للمدينة . ولعل هذه الآبدة ستظل احدى شواهد تقدم وازدهار العمارة في تلك العصور.

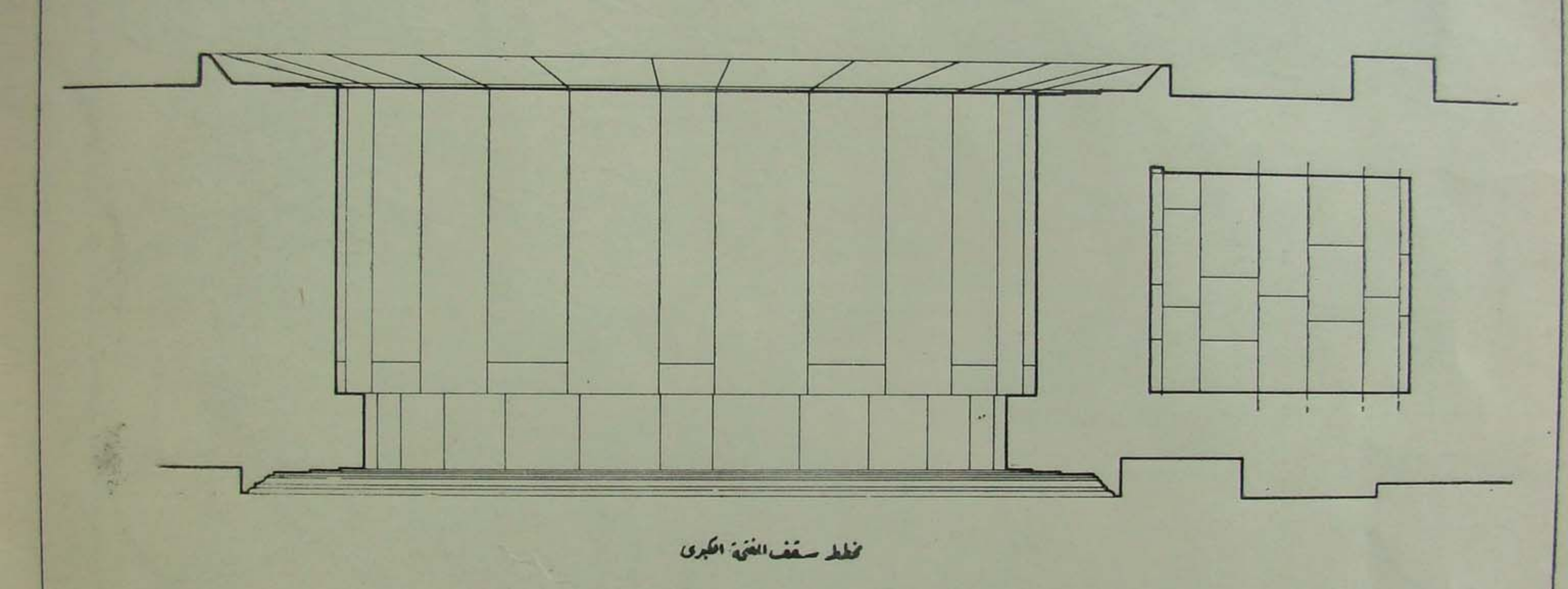
---

(١) B. Zouhdi : Histoire de l'urbanisme en Syrie (mémoire présenté al'Écoledu Louvre 1955) .

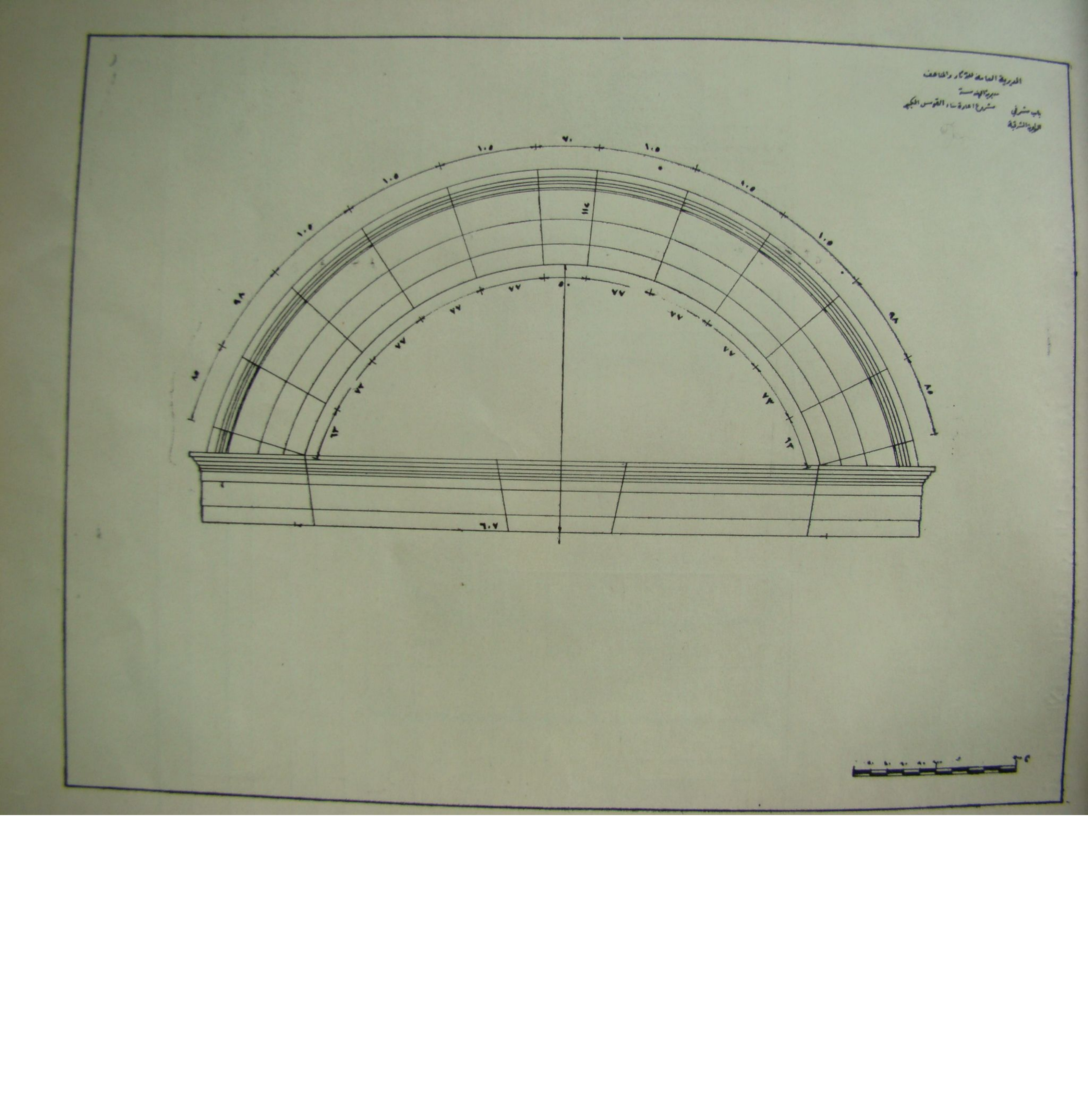


المخطط "رقم (١) موقع الباب الشرقي بالنسبة لمدينة دمشق

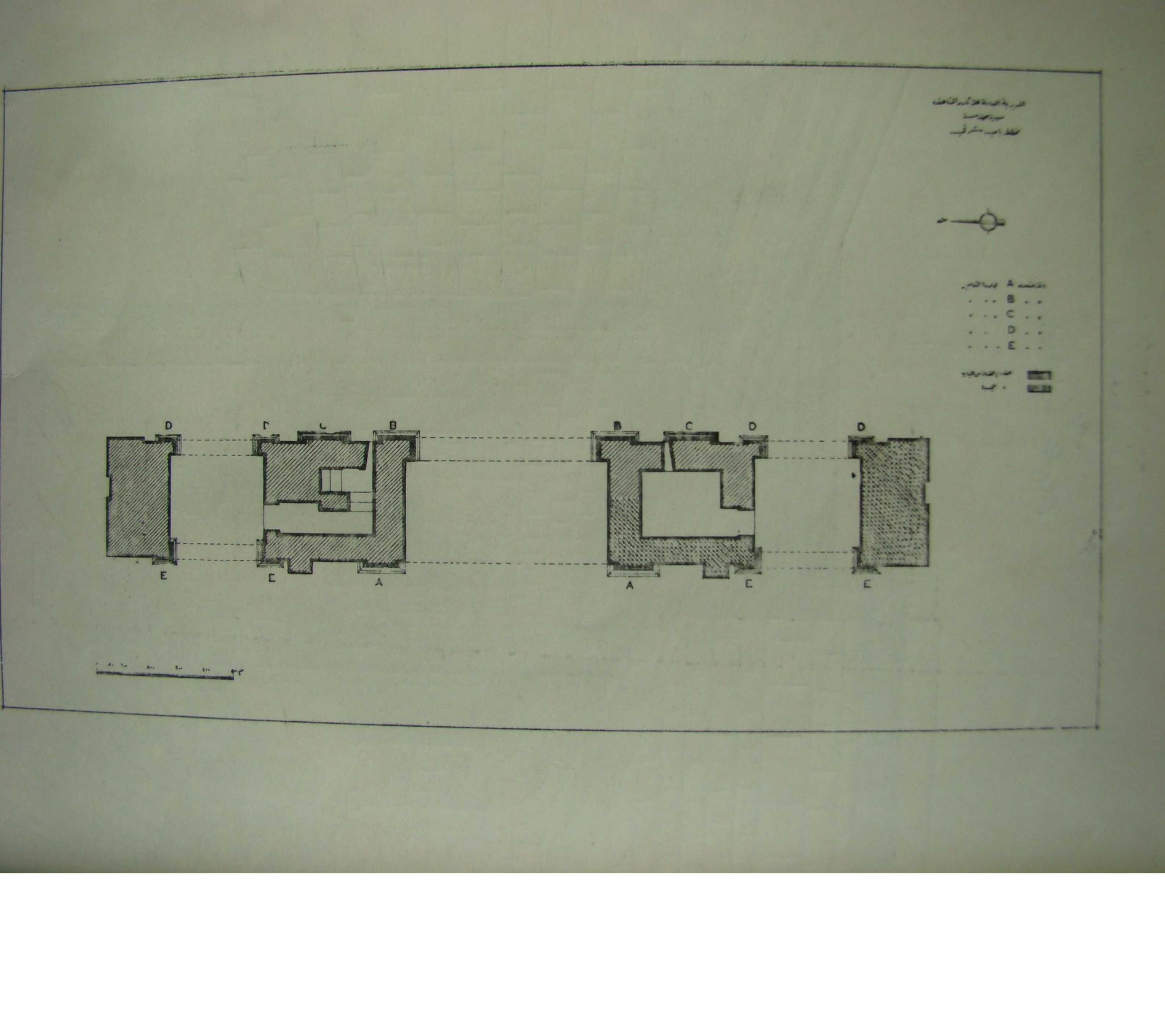
المديرية العامة للآثار والمتاحف
مديرية الهندسة
باب شرقي - مشروع اعادة بناء القوس الكبير



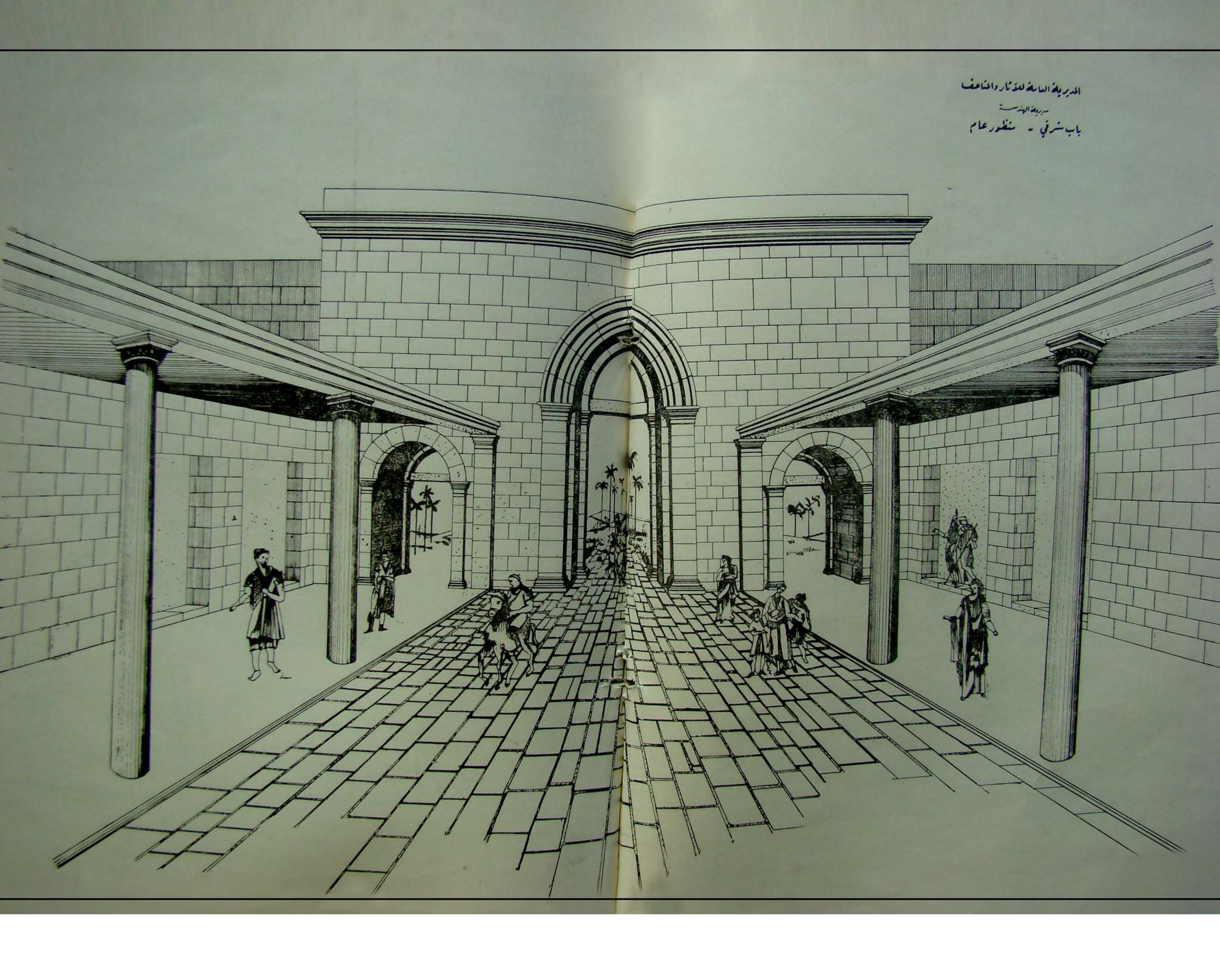
مخطط سقف وواجهة القوس للفتحة الوسطى للباب

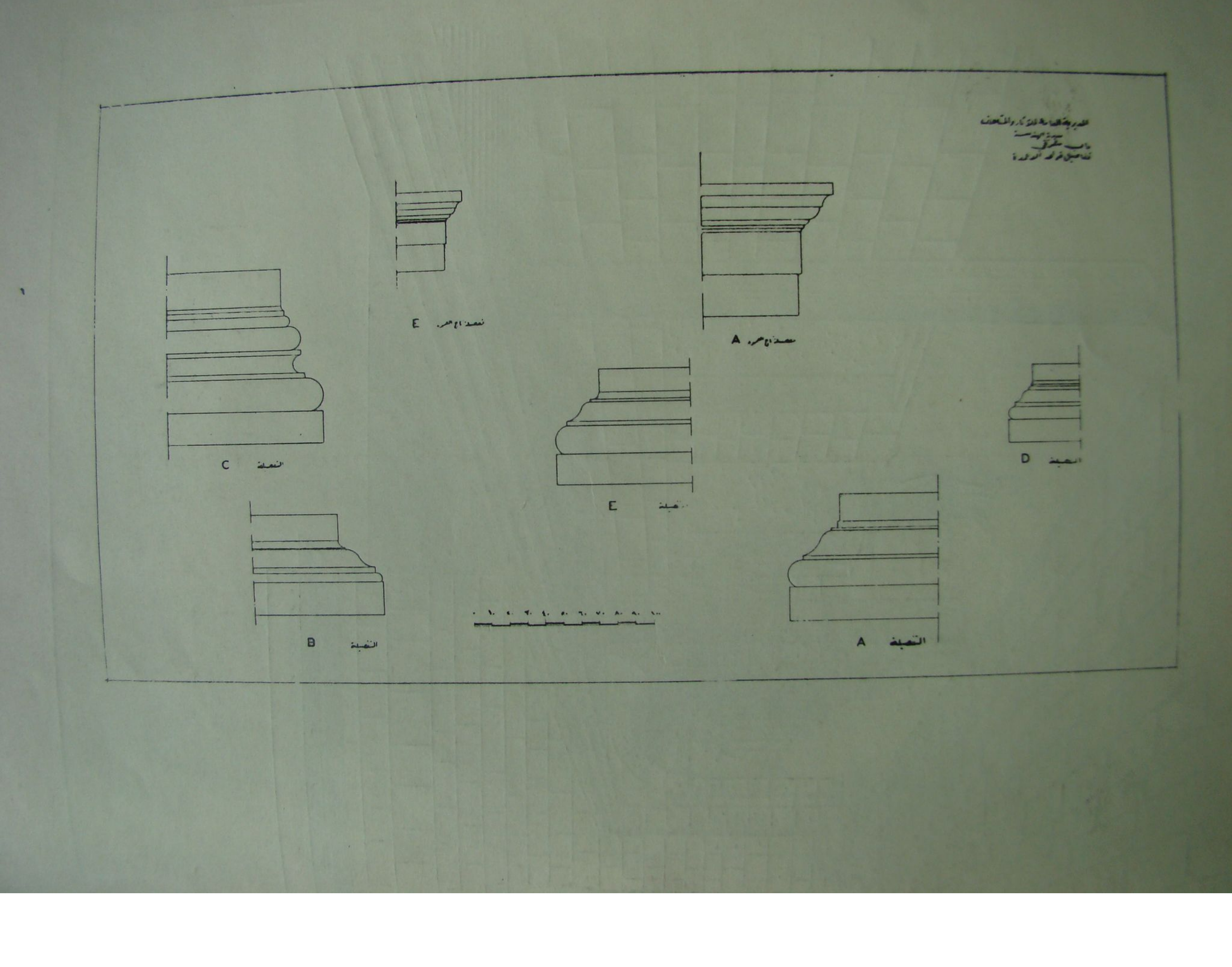

المديرية العامة للآثار والمتاحف
مديرية الهندسة
مشروع اعادة بناء القوس الكبير
باب شرقي
الواجهة الشرقية
٧٠
١٠٥
٩٨
٨٥
٧٧
٥٠
٧٣
٦٣
٦٠٧

المديرية العامة للآثار والمتاحف
مديرية الهندسة
باب شرقي - الواجهة الشرقية



A
B
C
D
E


المديرية العامة للآثار والمتاحف
مديرية الهندسة
باب شرقي - منظور عام


E
A
C
E
D
B
٠ ١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ ٨٠ ٩٠ ١٠٠
A



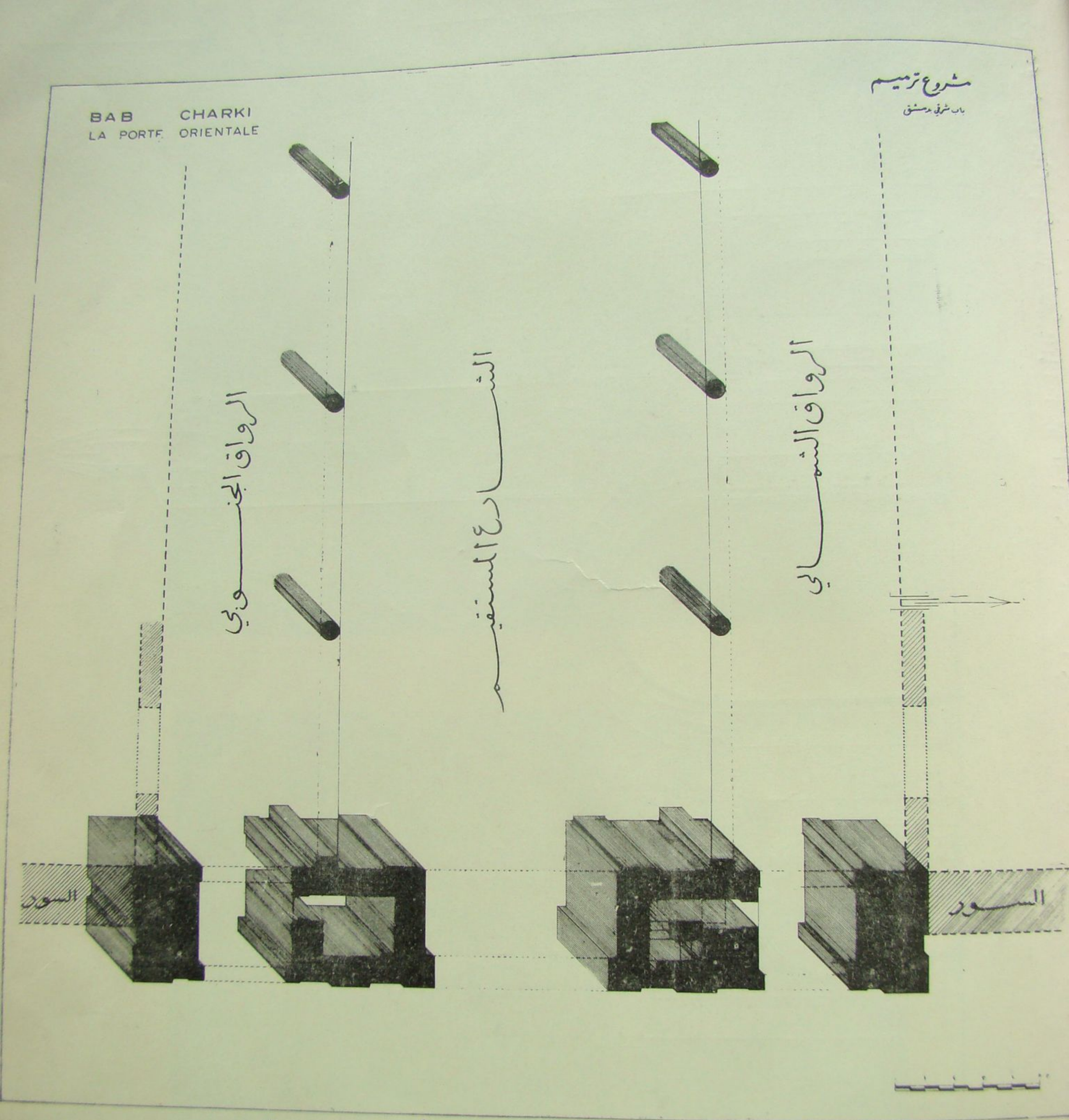
المخطط رقم (٤) منظور الباب بعد انتهاء الترميم

المديرية العامة للآثار والمتاحف

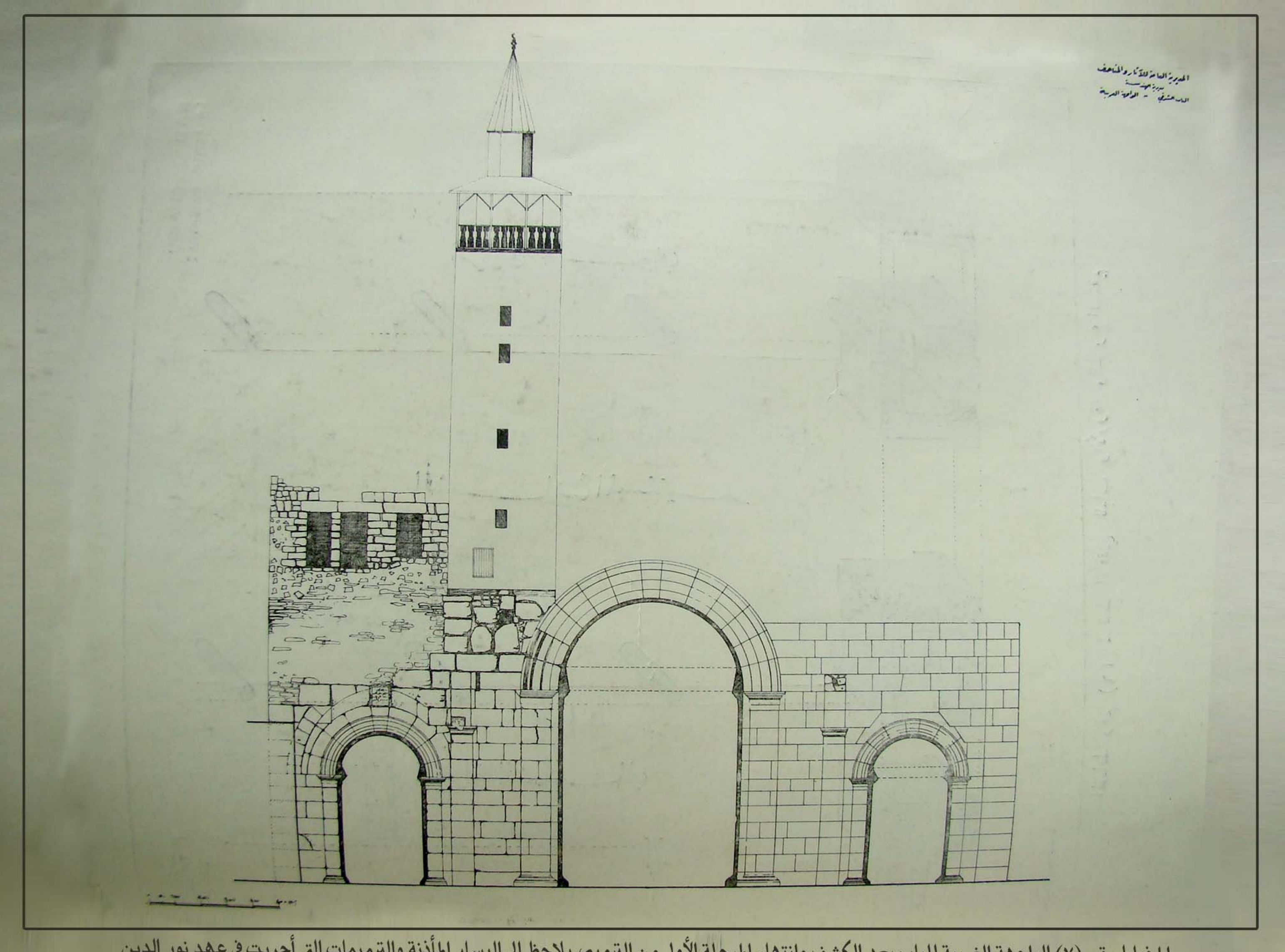
مديرية الهندسة

باب شرقي - الواجهة الغربية

المخطط رقم (٥) الأقسام المتبقية من الواجهة الغربية لدى كشف الباب



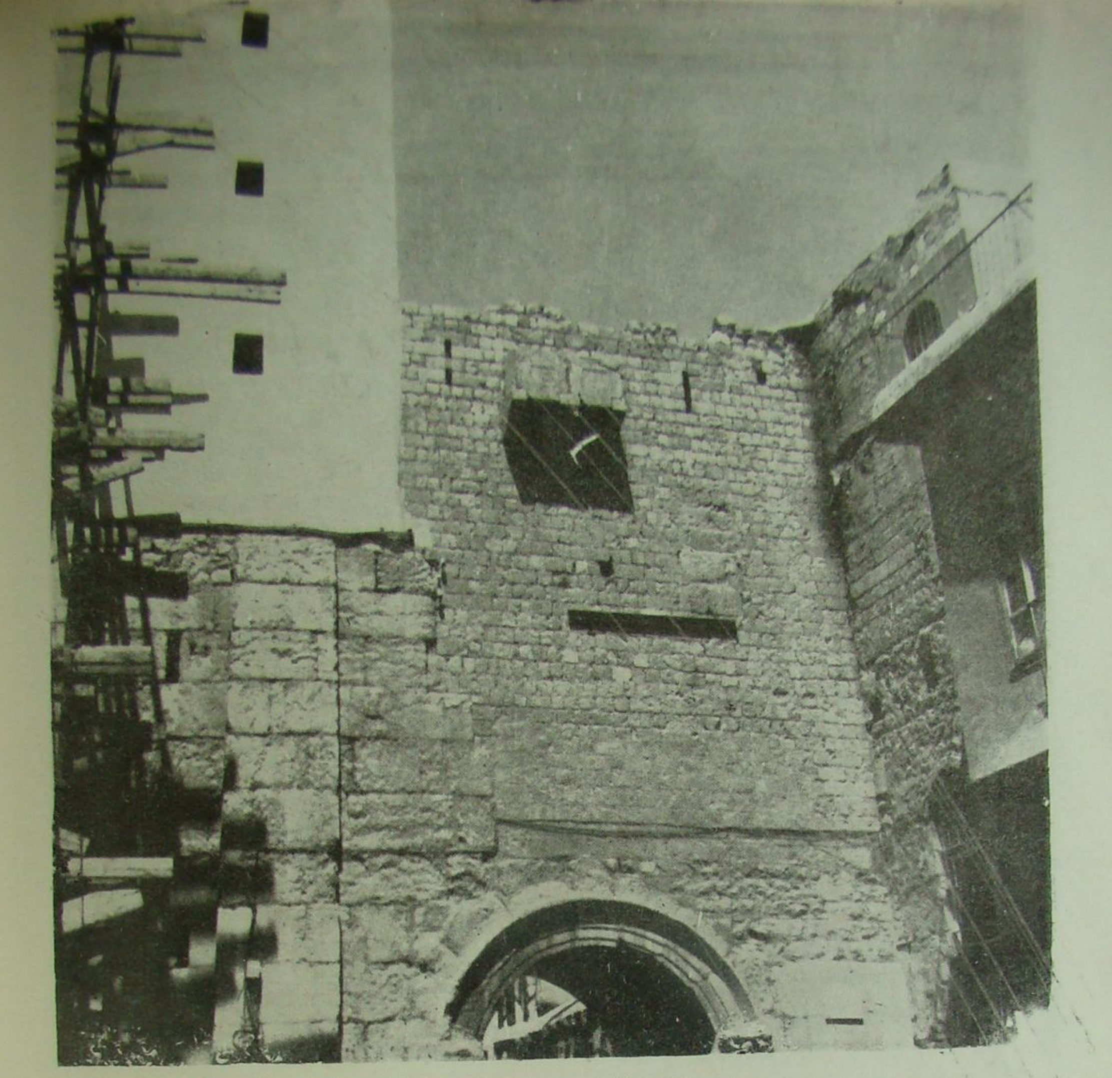
المخطط رقم (٦) المسقط الأفقي للباب والأروقة والشارع المستقيم



المخطط رقم (٧) الواجهة الغربية للباب بعد الكشف وانتهاء المرحلة الأولى من الترميم، يلاحظ الى اليسار المأذنة والترميمات التي أجريت في عهد نور الدين

الصوره ١





الصورة ـ ٣



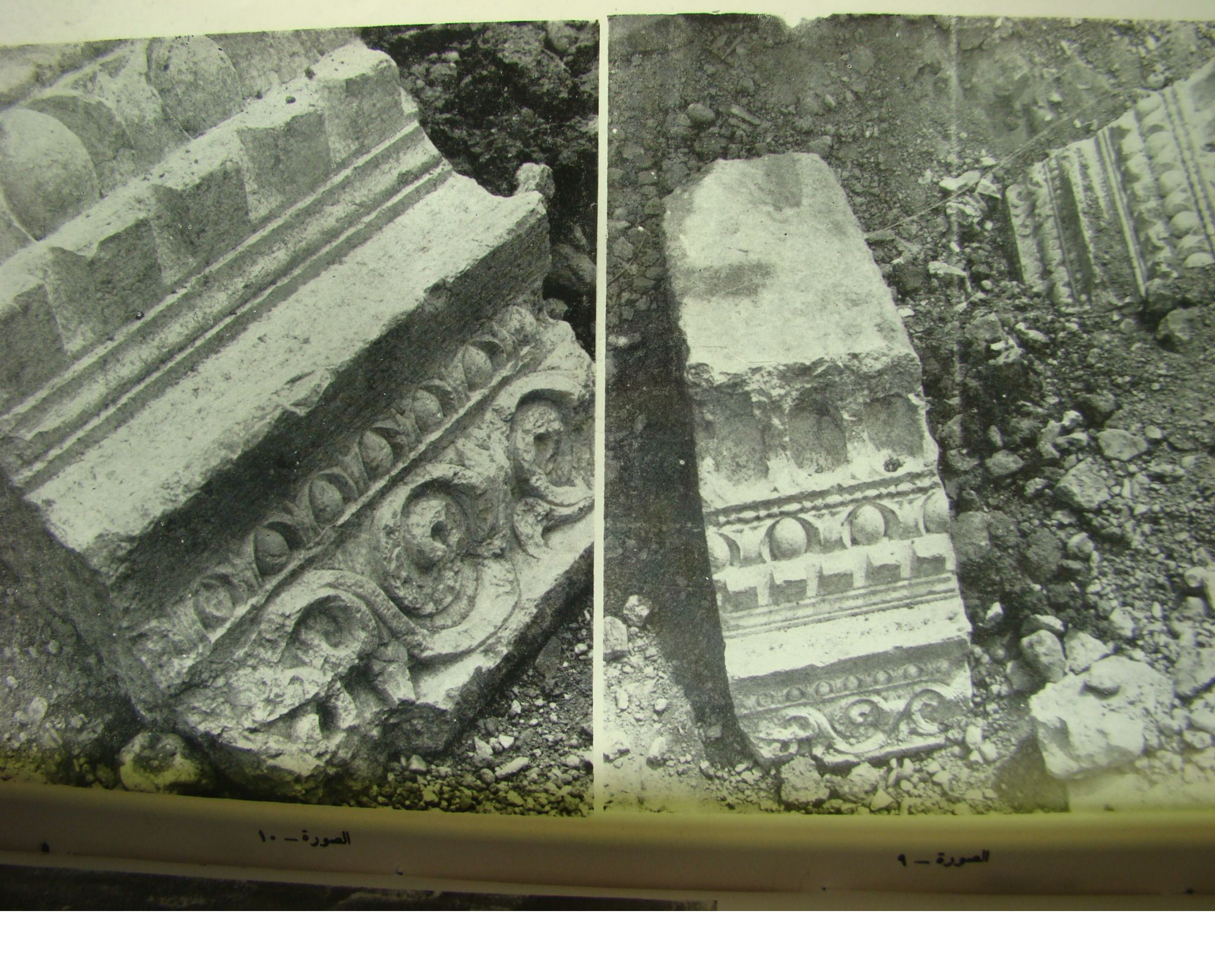
الصورة ـ ٤



الصورة ـ ٥







الصورة — ٩

الصورة — ١٠

الصورة ــ ١١



الصورة ـ ١٣

